مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

namacenter

قراءات

آلاف السنين في الصحراء

سردية غير قطعية عن التاريخ الاجتماعي لموريتانيا

بابا ولد حرمة

«آلاف السنين في الصحراء»

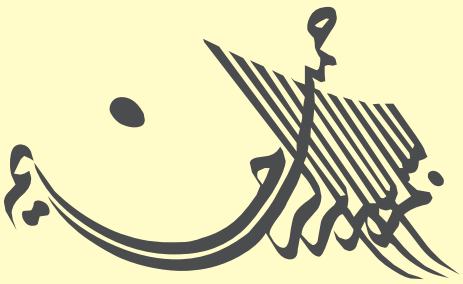

«آلاف السنين في الصحراء»..

سردية غير قطعية عن التاريخ
الاجتماعي لموريتانيا.

ملخص البحث

لاحظت الباحثة بجامعة ألبرتا الكندية آن ماكدوغال في مراجعتها لكتاب جيمس ويب Desert Frontier: Ecological and Economic Change along the Western Sahel, ١٦٠٠-١٨٥٠ «تخوم الصحراء: التحول الإيكولوجي والاقتصادي في الساحل الغربي ١٦٠٠-١٨٥٠» الصادر سنة ١٩٩٥ أن تاريخ الصحراء -على النقيض من الصحراء نفسها الماضية قدمًا في الجفاف والندرة- يُظهر في أيامنا هذه بوادر حيوية وتعافٍ[١]. كان حديث هذه الباحثة الضليعة بالتاريخ الاقتصادي للصحراء وممالحها وخطوطها التجارية عن البحوث المكتوبة باللغتين الإنجليزية والفرنسية عن الصحراء، التي عرفت باطراد توسعًا في زوايا التناول وتنوعًا في المقاربات فتحت آفاقًا جديدة بشأن تاريخ المنطقة وطرق تشكل قبائلها وسلطها وهوياتها تحت تأثير التغيرات الإيكولوجية والتبادلات التجارية والتلاقح الثقافي مع ضفتي الصحراء على حد سواء، وقدمت قراءات نقدية للتراث التاريخي المحلي والمرويات الشفهية بشأن ماضي الصحراء.[٢]

(1) McDougall, E. (1998). Research in Saharan History. The Journal of African History, 39 (3), pp. 467-480. Retrieved from http://www.jstor.org/stable/183363.

(٢) تعتبر دراسات هنري ت. نوريس وتشارلز ستيوارت وبيير بونت وعبد الودود ولد

غير أن التقاليد التاريخية المكتوبة حديثًا بالعربية لربما تكون قد ظلت تساير الصحراء في جفافها وعزلتها وندرة مصادرها وكذلك في تمفصلاتها القبلية والجهوية.[1] ولعل أهم كتاب بالعربية عن تاريخ موريتانيا يستفيد بشكل شامل من التقاليد البحثية الناطقة باللغات الأجنبية، وينطلق معها من الأرضية

البدوي الصحراوي ونشوء السلطة داخله وتمثله للإسلام وفولكلوره. وستكون هذه الكلاسيكيات منطلقًا لمراجعات رصينة رافضة لأطروحاتها و«تعميماتها ذات الجذور الكولونيالية» مع الباحثة البيروفية ماريا سيرفييو في دراستها الموسوعية لكونفدرالية أهل سيدي محمود والأمريكي رايموند تايلور في رصده لتفكك السلطة الأميرية في البراكنة والترارزة بدايات القرن التاسع عشر والتمازج العرقي في ضفة النهر لدى أولاد بنيوك وأولاد عايد وزمبتي. كما أضافت معالجات البرتغالي فرنشيسكو فرير الدارس الجاد للوثائق البرتغالية المتعلقة بشواطئ الصحراء لبنة أساسية في نمو مسارات بحثية جديدة حول الصحراء وأضاءتْ نقاطًا مظلمة من تاريخها وتشكل أعراقها وبناها السياسية، وكانت قراءة الباحث في جامعة جورجيا الأمريكية تيموثي كليفلاند لـ«حسوة» ابن عبد الوهاب وكذلك أطروحتُه للدكتوراه حول التحولات الهوياتية وتأثيرها على تغير الأنماط الثقافية والسياسية والأنشطة الاقتصادية في مدينة ولاتة تعبيرًا عن هذه المسارات الجديدة. ولعل محاولة ماريا سرفيو دمج ضفة نهر السنغال في التاريخ الموريتاني في كتاب أشرفت على تحريره سنة ٢٠١٧ وضم إسهامات ثرية لباحثين من جنسيات مختلفة كان آخر إضافة في هذا الاتجاه.

(١) لا تخلو التقاليد الناطقة بالعربية في التاريخ الموريتاني من أخذ للروايات المحلية عن الأحداث التاريخية وتشكل قبائل الصحراء وماضيها، على تناقضها وتبسيطيتها، على محمل الجد. وقد كان «تاريخ بلاد شنكيطي» لحماه الله ولد السالم الصادر سنة ٢٠١٠ عن دار الكتب العلمية ببيروت محاولة جادة في وضع تاريخ عام للصحراء، لكن كاتبه، رغم رفعه شعار تخليص التاريخ من الأهواء الجهوية والنظرة الكولونيالية ودعوته إلى الحياد، ربما يكون قد وقع في الفخ الجهوي والقبلي نفسه الذي رأى أنه طبع كتابات بعض المؤرخين ودفعهم إلى تجاهل بعض الأحداث والمحطات التاريخية وتضخيم أحداث أخرى. قارن بين معالجته للحرب التي قامت بين إمارة أبدوكل وأولاد الناصر في الشرق الموريتاني وتناوله/ تجاهله للصراع الذي وقع نهايات القرن السابع عشر بين تحالف المغافرة وقبائل صنهاجة في منطقة الكبلة التي يطلِق عليها بوادي الأطلسي. ويتضح البعد الجهوي في كتابة التاريخ الموريتاني عندما نقارن عمل ولد السالم مع مصنف آخر صادر في العام نفسه للحسين ولد محنض هو «تاريخ موريتانيا القديم والوسيط، والحديث» حيث أفرد هذا الأخير مكانة خاصة لصراع المغافرة وقبائل صنهاجة في منطقة الكبلة.

نفسها، هو كتاب أبو العباس أبراهام «آلاف السنين في الصحراء: تاريخ موريتانيا من البواكير حتى القرن العشرين» الصادر عن مركز نماء للدراسات والبحوث سنة ٢٠١٨. وقد سلك مؤلف هذا الكتاب مسلكًا مغايرًا لما درجت عليه الدارسات التاريخية الموريتانية من نفس جهوي ومركزيات عرقية وفئوية، وسعى إلى أشكلة مسلمات التاريخ الموريتاني التي تعود كتاب التاريخ اجترارها دون تقديم تفسيرات أو بحث عميق في جذورها. ورغم ما ورد في هذا الكتاب الذي سعى إلى أن يقدم سرديةً للتاريخ الاجتماعي من تفسيرات واستنتاجات غير متداولة أحيانًا وعدم تمكن أحايين أخرى من لغة التراث الشعبي المحكي، فإنه استطاع أن يقدم إسهامات حقيقية ورسَمَ حدودًا فاصلة بين الفولكلور القبلي والتاريخ، ووضعَ أمام القارئ العربي حكاية موريتانية متعددة الأعراق واللغات والمذاهب والديانات.

الأصول (قرابة ٦٠٠٠٠٠ ق. م.-٢٠٠٠ ق. م.)[1]

يفتتح أبو العباس أبراهام فصله الأول ساردًا ما علق بالذاكرة المحلية عن ماضي البلاد السحيق من خصوبة ووفرة في الأنهر والمياه كانت تعم حتى أكثر المناطق جدبًا في هذا العصر، قبل أن يسوق نتائج المسوح الفضائية والحفريات الآركيولوجية التي تؤكد ما تذهب إليه هذه المرويات الشفهية من تنوع إيكولوجي للصحراء الكبرى في الفترة السابقة على ٣٠٠٠ ق. م. ومن هذا المزج بين رواية شيخ من إدابلحسن في ثلاثينيات القرن العشرين واستنتاجات باحثيْن من جامعتي ليسستر وريدينغ البريطانيتين عن التاريخ الطبيعي للصحراء نتلمس الخطوط العريضة لهذا العمل ك«مقابلة موسوعية جدًّا [...] بين المصادر العربية -المحلية والمغاربية والمشرقية- والكتابات باللغات الأوربية،» وفق وصف المؤرخ وعالم الاجتماع الموسوعي عبد الودود ولد الشيخ في تقديمه للكتاب.

(١) حافظنا في تلخيص الكتاب على الفصول التي اعتمدها المؤلف.

ومحاولًا تتبع بدايات ظهور الإنسان في الصحراء، يأخذ الكاتب القارئ في رحلة طويلة ومضنية عبر العصور تبدأ من ٦٠٠٠٠ ق. م. يتضح من خلالها أن قدر «موريتانيا»، حتى قبل أن تتصحر وتندر فيها الموارد، هو التأخر عن «الركب الحضاري العالمي،[١]» وتمركز سكانها قرب الشاطئ[٢] وهجرتهم جنوبًا تحت تأثير الجفاف[٣] وهبوط القادمين من الشمال إلى الصحراء.[٤] وهي تحولات يحاول الكتاب أن يتلمس من تبعاتها جذور الشعوب (السود، الأمازيغ/ البافور) التي ستعمر المنطقة.

ملثمون وسود وتجار

ويرى الكاتب أن أسلمة الصحراء اتخذت مسارًا تدريجيًّا طيلة قرون،[٥] ويستغل كتابات الموسوعيين العرب (اليعقوبي، ابن حوقل، البكري، الإدريسي، ابن خلدون إلخ) لإعادة بناء تاريخ

(١) لم يظهر أحفاد «الإنسان الماهر» الذين بقيت آثارهم بمنطقة زويرات شمالي البلاد، في الصحراء إلا بعد ظهورهم بآلاف السنين في القوقاز وشمال إفريقيا. وتعود أولى معالم العصر النيوليثيني الذي تميز ببدء الزراعة وتربية الأبقار والضأن والماعز في الصحراء إلى الفترة ٦٠٠٠ ق. م. متأخرة نحو ألفي سنة عن مناطق أخرى من العالم، وفق ما ينقل الكاتب.

(٢) تدل المعطيات الآركيولوجية التي يسهب الكاتب في استعراضها أن منطقة نواكشوط عرفت حضورًا بشريًّا مكثفًا خلال العصر النيوليثيني وبدايات تطور في الذائقة الفنية وثَّقتْه الرسومات وبروز أنماط من التدين تشهد عليها أشكال القبور.

(٣) ينقل الكاتب هنا آثار التصحر الأخير الذي شهدته الصحراء ٣٠٠ ق. م. والذي دفع بمجموعات بشرية من السود نحو منطقتي تيشيت وولاتة انتظمت في تجمعات سكنية وقروية كثيرة كانت ذات تنظيم معماري وسياسي محكم، على النقيض، للمفارقة، من الأحياء العشوائية التي نشأت تحت ضغط الجفاف سبعينيات القرن العشرين في أطراف العاصمة نواكشوط.

(٤) الحديث هنا عن أسلاف البربر الذين جلبوا معهم الخيل والنحاس والحديد مدخلين موريتانيا إلى عصر التاريخ وعهد العربات، وسيستقدمون مع بدايات العصر المسيحي الجمل الذي غير وجه الصحراء وربط بين شعوبها وفتح أبواب التجارة ذات النطاق الواسع، ومكن الأمازيغ من بدء سيطرتهم الطويلة على الصحراء ومسالكها، كما يسرد الكاتب. وهي ظاهرة ستتكرر، كما سنرى، مع العرب المعقليين خلال القرن الرابع عشر، فما بعده.

(٥) هنا يبدأ الكاتب الاشتباك مع السرديات القبلية التي تجعل من فتح القادة المسلمين للصحراء أساطير مؤسسة لها. وللتوسع أكثر عن حضور هؤلاء الفاتحين، عقبة بن نافع نموذجًا، في أنساب بعض القبائل البيظانية والطوارقية انظر:
Nobili, M. (2012). Back to Saharan Myths: Preliminary Notes on ‘Uqba al-Mustajab. Annual Review of Islam in Africa, Issue 11, pp 79-84.

الصحراء ابتداءً من القرن الثامن، مقدمًا قراءة نقدية لما عمموا من صور نمطية عن سكان الصحراء تتعلق بفاقتهم ولثامهم وعيشهم على ألبان الإبل ولحومها وأكلهم للأفاعي، وعدم معرفتهم لأي نوع من الحبوب، مع جلدهم وقدرتهم على التحمل، ومشاركة نسائهم في الحرب.

ومن خلال هذه المصادر العربية، خاصة البكري، وبالاعتماد كذلك على نتائج الحفريات الآركيولوجية وكتابات الباحثة الكندية ماكدوغال، يعيد أبو العباس رسم معالم مدينة أودغست التي نشأت في القرن السابع/ الثامن الميلادي، وعرفت ازدهارًا غير مسبوق في تاريخ الصحراء. فقد كانت محطة تجارية مهمة للعبيد والذهب ومركزًا حضريًّا عرفت فيه العمارة تطورًا ملحوظًا وازدهرت فيه زراعة البساتين والواحات وأعمال الحدادة.[1]

ورغم تجاهل أغلبية المصادر العربية الوسيطة لـ«المجتمعات المهمشة والتابعة مثل البافور والحراطين والساميين» يحاول أبو العباس لملمة ما توفره المصادر الشفهية التي جمعها باحثون غربيون مثل: بوفيل ولوكاس ومودا وماكدوغال وويتكومب عن هذه التشكيلات الاجتماعية التي عاشت معزولة في واحات الصحراء.[2] وإلى جنوب شرق الواحات التي عاشت فيها هذه الشعوب التابعة، يسافر نحو مدينة كومبي صالح في الحوض الغربي حيث صعدت قوة ماندينغية نهاية الألفية

(١) من داخل هذه المدينة، يشرع أبو العباس في تلمس أنماط العيش والعادات الغذائية السائدة لدى أغنياء المدينة (الثريد المغذى باللحم) وفقرائها (العجائن الممذوقة باللبن، أي العيش؟)، والتمايزات العرقية (العرب، البربر) والطبقية وأنماط التدين التي تشكلت على وقع التبادلات التجارية.

(٢) هنا أيضًا يبتعد الكتاب عن تلك القطعيات التي طالما اجترها بعض المؤرخين مقارنًا بين مختلف المقاربات التي رامت بحث أصول الحراطين والبافور (الأمازيغية والسوداء) ودياناتهم (اليهودية، المسيحية، الوثنية) وسحناتهم (البيضاء والسوداء) وتحولاتهم إلى صيادي إيمراغن وإلى قبائل وطبقات ألحقت فيما بعد بالمجتمع البيظاني في أثناء تشكله، وأدت داخله أدوارًا فنية وحرفية.

الأولى من العصر المسيحي لتؤسس أول/ ثاني دولة إفريقية هي إمبراطورية غانا التي امتد نفوذها إلى عمق مالي والنيجر.[1]

عصر الدولة

ومن صعود المانديغ في جنوب الصحراء ينتقل الكاتب إلى تبلور قوة صنهاجة في عمق الصحراء وتأسيسهم لدولة المرابطون منتصف القرن الحادي عشر. وبعيدًا عن الاقتصار على السرد الجاف للأحداث التاريخية المفصلية المعروفة (حج يحيى بن إبراهيم، لقائه بالفاسي، قدوم ابن ياسين، تأسيس الرباط، غزو سجلماسة، السيطرة على المغرب، استقلال الجناح المغربي تحت قيادة ابن تاشفين وعودة أبو بكر بن عمر، إنشاء مراكش، السيطرة على الأندلس... إلخ.)، يغوص أبو العباس في الظروف الاقتصادية والخلفيات الأيديولوجية والدعوية لنشأة هذه الدولة التي «حولت لأول مرة في الصحراء عقيدة دينية إلى قضية حربية وسياسية ناجحة».[2]

ويعود الكاتب مع أبي بكر بن عمر إلى الصحراء، حيث سعى هذا القائد إلى تعويض ما خسر في الشمال بالتوسع جنوبًا، وفق السردية الصحراوية، ليسيطر على مناطق واسعة تمتد حتى نهري السنغال والنيجر.

(١) في عرضه عن تاريخ غانا يستغل الكاتب أساطير سوننكية ومصادر عربية وإصدارات غربية رصينة حديثة أعادت النظر في تاريخ الحضارات الإفريقية الغابرة، مبرزًا ما نسج حولها من قصص حول وفرة الذهب، وقوتها العسكرية، وعبادة أهلها قبل إسلامهم للثعابين، والعلاقات التجارية والسياسية الوطيدة التي ربطتهم بجيرانهم البربر في الشمال.

(٢) يؤكد أبو العباس على الدور المحوري الذي لعبه المذهب المالكي في شحذ الهمم المرابطية وجذب العامة من البربر حيث كان هذا المذهب رأس الحربة ضد الكيانات السياسية والمذاهب العقدية المنتشرة حينها في أفريقية والمغرب. كما يتوقف عند الإسهامات الحضارية التي قدمها المرابطون للمغرب (بناء مراكش وتامدلت، ومدننة فاس)، واندماجهم في النسيج الثقافي الأندلسي، رغم رفعهم لشعارات راديكالية تجاه الموسيقى والفنون.

وكما لو أن طرفي الصحراء الجنوبيَّ والشماليَّ يتبادلان الأدوار، يُودع الكاتب شمال الصحراء الذي «خرج من تصدر التاريخ السياسي الإسلامي العالمي»، متجهًا نحو التخوم الجنوبية لها بحثًا عن حدود ما يعتبره «علاقات اجتماعية وسياسية وثقافية [...] نشأت في مجال [التكرور] والمجالات المحيطة بهم» بعد أفول دولة المرابطون أخذت منها مناطق واسعة تشمل مالي وأجزاء من موريتانيا تسمية بلاد التكرور لدى متأخري الجغرافيين العرب. ويؤكد على التنوع العرقي لهذا المجال الذي إن كان قد نشأ تكروريا بدايات الألفية الثانية، فإنه سرعان ما عرف سيطرة الماندينغ ثم الصنهاجيين والطوارق[1].

ومثلت مدينة ولاتة التاريخية في أقصى الشرق الموريتاني -حسب الكاتب- تاج هذا المجال، وعكست تنوعه العرقي بجدارة. فقد بدأت يهودية ثم تجمعًا سكنيًّا للسونينكي باسم بيرو، ثم أصبحت ماندينغية، قبل أن تستقبل صنهاجيين ومسوفيين قادمين من كومبي صالح وأودغست، وتدفقت نحوها لاحقًا أفواج التجار المغاربة. وقد عرفت المدينة بفعل ممالحها ازدهارًا اقتصاديًّا وتعددًا لغويًّا، وتسامحًا جنوسيًّا لن يتوقف حتى الهجرة الأخيرة لقبائل المحاجيب المحافظة، كما ينقل عن المختار ولد حامدن. كما كانت مركز إشعاع علمي في فترة تميزت بتعاظم مد الماندينغ وسيطرتهم شمالًا على أجزاء واسعة من الصحراء.

(١) تقترب هذه الرؤية لـ «بلاد التكرور» مما قدمه الباحث الراحل عبد الرحمن با في أطروحته التي ناقشها سنة ١٩٩٦ بجامعة داكار. فقد اعتبر أن المؤرخين العرب، وحتى المحليين، أطلقوا -في التباس رده إلى الازدهار الذي عرفته دولة التكرور- هذا الاسم على إمبراطورية مالي التي نشأت لاحقًا. انظر:

Ba, A. (2017). Le Takrur Historique et l'Héritage de Fuuta Tooro. In Cervello, M. & Taylor, R. (Eds.). Histoire et Politique dans la Vallée du Fleuve Senegal. (pp.161-95). Paris: L'Harmattan.

وبحثًا عن البدايات الأولى لنشأة المدن القوافلية (أزوغي، وادان، آبير، تيشيت، شنغيطي، تنيغي) في المجال الصحراوي ابتداءً من القرن الثالث عشر واستقصاءً لأنماط الحياة الاجتماعية والنظم السياسية التي سادت خلال هذه الفترة، يفكك الكاتب سرديات التأسيس المحلية نافيًا صبغة النقاء القبلي المتداولة محليًّا، ويستعرض مشاهدات الرحالة البرتغاليين وغيرهم من الأوروبيين مثل كاداموشتو وفرناندز وملتشيور بيتوني ولاكورب خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وما رسموا في كتاباتهم من صور للندرة والبؤس وتحرر للمرأة في مجتمع الصحراء. وقد جذبت هذه المدن وما توفر من فرص اقتصادية البرتغاليين الذين أنشؤوا محطة تجارية في وادان خلال القرن الخامس عشر، ودخلوا عبر محطة آرغين ومحيط نواكشوط في تبادلات تجارية مكثفة كان العبيد والذهب أهم صادراتها إلى أوروبا.[1]

غزوات وتجارة وشعوب

وفي إعادة بناء لمسار نزوح القبائل المعقلية التي طورت عاداتها الحربية والمغارمية خلال رحلتها الطويلة من مصر نحو المغرب، يشدد الكاتب على نفي أطروحة «الفتح العربي

(1) ومن خلال البضائع التي جلبها البرتغاليون إلى الصحراء كالثياب والحبوب وأدوات الزينة والرفاهية والأسلحة، يترصد الكاتب التغيرات التي طرأت على العادات الغذائية والاحتشام في اللبس لدى الصحراويات، وتأثير هذه البضائع على التراتبية الاجتماعية، والصعود العسكري لمجموعات على حساب أخرى بعد انتشار السلاح الناري الذي يرى أن احتكاره عبر الاتفاقيات مع الأوروبيين أسهم في اتساع الفروق التراتبية والوظيفية بين القبائل المحاربة وتلك الزاوية، بعد أن كانت تلك الفروق غير محسوسة بشكل كبير في المدن الصحراوية.

للصحراء»[١]. ويؤكد خلال حديثه عن تشكل المجتمع البيظاني الذي أخذ صيغته النهائية من تداخل هؤلاء الوافدين والسكان الأصليين في القرنين السابع والثامن عشر على دور الاتحادات التجارية والسياسية وكتابة التاريخ بأثر رجعي في تشكل القبائل الصنهاجية الصحراوية التي نزعت نحو الانتساب إلى أصول عربية (قرشية وشريفة)، وهي عملية لم تسلم منها حتى القبائل الحسانية التي استبدلت بانتماءها المذحجي اليمني أصول قرشية، ومستعرضًا قراءات مؤرخين غربيين مثل هنري نوريس وتوماس ويتكومب وتحليلهما لفولكلور الأصول لدى قبائل وكونفدراليات موريتانية مثل تشمشة في الجنوب وكنتة في الشرق، وما يحمل هذا الفولكلور من تناقض، يقترح الكاتب دمج الأنماط الإنتاجية في تفسير تشكل القبائل في الصحراء. ودون أن يعطي الهجرة الحسانية التي وسعت التخلي عن الصنهاجية ووطدت استخدام اللسان الحساني في الصحراء عاملًا حاسمًا، يشير إلى أن عملية التعرب تعود جذورها إلى ما قبل ذلك بكثير.

وبعيدًا عن التعميمات التي ينتهجها بعض المؤرخين في إضفاء طابع شامل لتبعات حرب شربية في الصحراء، يذهب أبو العباس إلى القول باقتصار نتائج هذه الحرب على منطقة الكبلة. ويرى أن صعود ناصر الدين زعيم تشمشة في هذه الحرب التي دارت رحاها سبعينيات القرن السابع عشر كان تعبيرًا

---

(١) يؤكد الكاتب -بالاعتماد على شهادات ليون الإفريقي والرحالة البرتغاليين الأوائل- على الطابع التدرجي لهذا النزوح الذي بدأ في القرن الرابع عشر الميلادي حتى القرن السادس عشر مع بني المختار (أولاد دليم، الأوداية، البرابيش، الرحامنة) ثم بني حسان (أولاد رزك، المغافرة). وهو الرأي نفسه الذي ذهب إليه عبد الودود ولد الشيخ في أطروحته Nomadism, Islam, et Pouvoir politique dans la Société Maure Précoloniale. عن التغلغل الحساني في الصحراء. كما يشير الكاتب إلى الطابع الديناميكي الذي طبع العلاقة بين العرب والصنهاجيين، على عكس ما تقدمه السرديات المحلية التي لا تخلو من مبالغة في تخيل النزوح والسيطرة الحسانية، ومستوى التنظيم السياسي والعسكري اللمتوني السابق على هذه الهجرات، ودور بعض القبائل في هذا الصراع.

عن رغبة مجتمع الزوايا في تنظيم ذاته، والاستفادة اقتصاديًّا من إمكانيات مجتمع السودان جنوبًا والتجارة الأطلسية، وكبح جماح السطوة المغفرية.[1]

الحياة البيظانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

ويستعيد الكاتب معالم الحياة البيظانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والفروق التي نمت بين عالمي الزوايا وحسَّان. ويقدم معتمدًا على رفاقه المفضلين في الكتاب (زائري المجال البيظاني من الأوروبيين) صورًا من أنماط الحياة التي تميزت خلال القرن الثامن عشر بغياب أي أمراض أو أوبئة ذات انتشار كبير، وتعايشًا بين السلاح الأبيض والناري وبدء استخدام العلامة المميزة للبيظان، الدراعة التي عرفت بالشنظورة نسبة إلى أمير الترارزة اعلي شنظورة (١٧٠٣-١٧٢٧) واستخدمت على نطاق واسع حتى عرف عام ١٧٢٤ بعام الدراريع في وادان وولاتة. ويشير إلى التغيرات الإيكولوجية وتوسع الصحراء جنوبًا ما مكن القبائل المحاربة المعتمدة على الإبل من ترسيخ نفوذها في منطقة الحدود مع السافانا، ومكن من قيام علاقات وطيدة بين سكان الصحراء وجيرانهم السود في الجنوب. وهي العلاقات التي تراوحت بين التجارية وفرض المكوس والغرامات والهجمات وحملات التعبيد التي تورط فيها الزوايا وحسان وعرفت صعودًا مطردًا ابتداءً من هذا القرن. وقد شهد هذا القرن كذلك ازدهار تجارة الخيول العربية التي كان الطلب عليها كبيرًا في بلاطات ممالك جنوب النهر، وصعودًا صاروخيًّا كذلك لمكانة العلك في التبادلات التجارية

(١) لا يعطي الكاتب الذي يستعرض التفسيرات الشائعة لهذه الحرب لدى بوبكر باري وولد الشيخ أهمية كبيرة للتقابل العرقي (العرب/ صنهاجة) في نشوب هذه الحرب، لكنه يشدد -وهو يتتبع مواقع معارك شربة مثل انتجي وجيوة قرب ميناء هدي ومملحة آوليل- على الخلفيات الاقتصادية لهذا الصراع.

مـع الأوروبييـن التي كانـت تتـم فـي المحطـات النهريـة وعلـى شـواطئ الأطلسـي.

أمراء ورؤساء وغزوات

يسرد الكاتب بعد ذلك مراحل نشأة وتطور النظام الأميري في الصحراء مشيرًا إلى دور موقعة انتيتام وحرب شربية في ولادة كيانات مغفرية، متعقبًا الأمراء الذين تتالوا على إمارة الترارزة التي سيطرت على شواطئ الأطلسي وضفة النهر وكيف اشتد عودها مع اعلي شنظورة الذي أزاح عنها سطوة البراكنة، لتبقى الإمارة في عقبه وإن انتقلت من أهل اعمر ولد اعلي إلى بيت أهل اعمر ولد المختار (والد محمد لحبيب) بداية القرن التاسع عشر. وخلال هذا المسار يقدم نماذج من الاتفاقيات التي عقدتها الترارزة مع السلطات التجارية الفرنسية والإنجليزية والصراعات الداخلية التي عرفتها الإمارة،[1] وتلك التي خاضتها ضد نظيراتها في الصحراء، وضد السلطات الفرنسية التي نجحت في تحجيم الدور التروزي في ممالك جنوب

(١) أطلق الكاتب اسم «خنديشة» و»خندوشة» على التحالف المعارض للأمير محمد لحبيب الذي تزعمه أخوه غير الشقيق ولد الليكاط. والصحيح هو «خندوسَة» بالسين. وهو تكتل وصفه الباحث العارف بتاريخ النظام الأميري محمد المختار ولد السعد بالحلف المشاغب. وقال المؤرخ الموسوعي لإمارة الترارزة، أحمد سالم ولد باكاه، إن أصل تسميته من الاختلاط والالتحام اللذين تولدا من الزيجات المتشابكة التي نسجتها فاطمة بنت أحمد ولد سيدي (أهل خوبَّاهْ) ببنتيها وابنها وربيبتها، فوحدت من خلالها بين أهل الشرقي بن هدي وبين أهل التونسي اللذين لا يتلقيان قبل أحمد من دامان. وقد اشتهر هذا التحالف بمعارضته للأمراء حتى قال أحدهم في ذلك: مرظَ خندوس ما يمكنْ ++ مزالت دون محبوسَ +++ ما قايلْ لو ملان كُنْ ++ بين أمجارْ وخندوسَ. وأمجار تعني الزعيم بالصنهاجية والمقصود بها هنا الأمير. وتستحق ظاهرة نشوء الأحلاف السياسية بين بيوتات أولاد أحمد من دامان غير المرتبطة بقرابات نسبية ماسة الدراسة، إذ يشير ولد باكاه إلى تحالف آخر بين أهل أحمد ديَّ وأهل اعمر آغْجيِّلْ يسمي «الليغط» من اللغط، «لأنه - كما يُروى- «كثيرًا ما تسمع في أحيائهم خصومات، وذلك لشراسة في أخلاقهم وحدة في طباعهم.»

الضفة (الوالو، الكايور) ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر إبان حكم أمير الترارزة الأشهر محمد لحبيب.

كما يعطي الصورة نفسها عن إمارة البراكنة التي بدأت كقوة متنقلة في مجال المغافرة، خاصة مع القائد المغفري القوي أحمد ولد الهيبة، قبل أن يتعمق الانقسام السلطوي داخلها بين أولاد نغماش وأولاد السيد الذين بدأ نفوذهم يتعاظم مع آغريش بن سدوم في أربعينيات القرن الثامن عشر، وانفردوا لاحقًا بالسيطرة على المنطقة الجنوبية من البراكنة، حيث محطات التبادل التجاري مع الأوروبيين وعرفوا هم أيضًا مسار الانقسام والصراع مع الجيران نفسه.

وفي أقصى المنطقة الجنوبية الشرقية من موريتانيا في نقطة أخرى من نقاط التماس بين محاربي حسان والمزارعين السود ستبدأ أرستقراطية جديدة من المغافرة (أولاد امبارك) بإزاحة أبناء عمومتهم الأقدمين هناك باسطين سيطرتهم بعد معركة كسارى سنة ١٧١٢ التي قادها هنون العبيدي من أهل محمد الزناكي. يؤكد الكاتب على التشرذم الذي عاشته سلطات أولاد امبارك بين عدة أسر من أهمها أهل بهدل في باغنة داخل الأراضي المالية وأولاد هنون العبيدي في الحوض وتكانت بالإضافة إلى رئاسيات أخرى. وستؤدي الصراعات الداخلية التي استعرت بين زعامات هذه الأسر وداخلها وصعود قوى قبلية كإدوعيش وأولاد الناصر، وتوسع نفوذ الفوتانكة بقيادة الحاج عمر في الجنوب، إلى إنهاء سطوة أولاد امبارك، لكن ذكرهم ومكانتهم الأسطورية ستبقى محفورة في ذاكرة البيظان.

وفي آدرار يكشف الكاتب الظروف التاريخية التي اكتنفت نشأة الإمارة مع عثمان ولد لفظيل (م. ١٧٧٠) ومسار توطد الإمارة في عقبه (أهل عيدة) وصراعات الوراثة وما رافقها من فوضى وما عرفت الإمارة كذلك من رخاء وسلم (عافية أحمد ولد امحمد).[١]

(١) هنا أيضًا لا يكتفي أبو العباس بالمرويات المحلية، إذ يدعم ما راج عن السلم الذي عم إمارة آدرار في عهد أحمد ولد امحمَّدْ بما نقلته مجلة مانشستر للجغرافيا سنة ١٨٨٦ عن هذا الأمير وقوته وثقافته وازدهار الإمارة في عهده. وهي مقابلة بين المصادر المحلية والأجنبية حافظ عليها في كل فصول الكتاب، كلما كانت متاحة.

كما يتطرق إلى الأدوار التي أداها أبناء عمومة أولاد عمني (أولاد غيلان، أولاد آكشار) وإديشلي في صياغة النظام الأميري وترجيح كفة الأمراء المتصارعين، ويسلط الأضواء على الصراعات التي خاضتها إمارة أهل عيدة ضد إدوعيش والترارزة وأولاد دليم.

وفي تكانت يسبر مسار تشكل قوة صنهاجية وتحررها من الدوران في فلك القوى المغفرية، ونجاحها تحت قيادة محمد شين في الصمود ضد حصار حنيكات بغدادة نهايات القرن الثامن عشر. ويؤكد الكاتب على خصوصية صراعات الوراثة التي دارت على عرش هذه الإمارة، والتي عادةً ما تقابل فيها أبناء الأمير المتوفي مع أعمامهم كما حدث بين اعمر ولد امحمد خونه وعمه اعلي ولد اعمر، وبين بكار ولد محمد شين (بخواكة) وأعمامه بقيادة سيد أحمد ولد بكار (المكزوزة) في ثمانينيات القرن الثامن عشر،[1] وفي عشرينيات القرن التاسع عشر بين اسويد أحمد وأعمامه بقيادة بوسيف. وسيؤدي هذا الصراع الأخير إلى شرخ نهائي بين حلفاء اسويد أحمد (أبكاك) وأنصار أعمامه (اشراتيت)، وإن كانت نهايات القرن التاسع عشر ستعرف نوعًا من الوحدة الرخوة بين الطرفين ضد الأخطار المشتركة تحت قيادة أمير تكانت الأقوى بكار ولد اسويد أحمد الذي استطاع توسيع نفوذ الإمارة وتوطيد سلطاتها على مناطق واسعة امتدت حتى كيدي ماغة على ضفاف نهر السنغال.

ولا يختم الكاتب فصله عن الأمراء والرؤساء والغزوات قبل الحديث عن القبائل التي نجحت في البقاء مستقلة، أو استقلت في لحظات تاريخية معينة، عن إمارات الصحراء الأربع مثل أولاد دليم وأولاد الناصر وأولاد داوود، وعن إمارة صنهاجية أخرى

(١) يصف الكاتب حلف بكار ولد محمد شين بـ «بهواكة» بالهاء، والصحيح أنها «بخواكة». وهي -كما ذكر في الكتاب- تعني عدم التماسك، على النقيض من الحلف المناهض له الذي سمى بـ «المكزوزة» من الالتحام والتجانس. وربما تكون الكلمة تطلق على الأنباط، كما ينقل الحسين ولد محنض معتمدًا على تعريب امحمد ولد الطلبة لـ«اكليبْ بخواكة» في شعره بـ«أكيمة الأنباط». انظر: ولد محنض. (٢٠١٠). تاريخ موريتانيا القديم والوسيط. نواكشوط: دار الفكر. ص. ٦٥.

نجحت في الصعود والسيطرة على مناطق واسعة من الحوض في أقصى الشرق منتصف القرن التاسع عشر هي مشظوف.

الحياة الموريتانية في القرن التاسع عشر

ومستعرضًا أهم ملامح حياة الفضاء الموريتاني في القرن الذي سبق سيطرة الفرنسيين، يؤكد أبو العباس على أهمية تجارة الملح والصمغ والعبيد والبضائع الوافدة عبر المحطات الفرنسية، وكيف أعادت هذه الأنشطة صياغة الحياة وغيرت التوازن الديمغرافي. وقد تزامن هذا القرن مع تزايد إدخال العبيد سواء عبر التجارة أو عبر الخطف حيث شكلوا أزيد من ٥٠٪ من السكان في بعض المناطق. كما يعطي لمحة عن طبقة زناغة الذين يعيشون في كنف القبائل الحسانية أو الزاوية مقدمين خدمات وإتاوات مقابل حمايتهم المفترضة، الروحية منها أو العسكرية، وعن لمعلمين وإيغَّاون[1] وأدوارهم

(١) لم تخل المعلومات التي قدمها الكاتب في إطار حديثه عن بدايات الفن الموريتاني من التباس خاصة مركزية أولاد امبارك (الدارجة لدى جل من تناولوا هذا الموضوع) في نشأته، وانتقاله من هناك، كما يقترح، مع عودة الأمير أحمد ولد الهيبة بعد مشاركته في حصار حنيكات بغدادة (١٧٨٧) إلى البراكنة. وهو تفسير لا يخلو من ميكانيكية، وتناقض تاريخي. فمن المعروف أن تقاليد الفن قبل تلك الفترة، كما تشهد على ذلك اتهيدينات الأمير أعمر ولد المختار التي كان ينسجها أبناء مانو في الترارزة بعيدًا عن مجال أولاد مبارك، قد استوت واشتد عودها في الترارزة، كما ينقل الكاتب نفسه. كما أن أحمد ولد الهيبة توفي سنة ١٧٢٧، وفق ما ينقل سيدي أحمد ولد الأمير في كتاب «امروك الحرف»، أي قبل حصار حنيكات بغدادة بأزيد من نصف قرن. وقبل وفاته بسنوات، كان الفنان الأشهر في البراكنة عالي ول بجيجة قد مدحه في بحر شعري خاص بهذا الفنان هو «بت حثو الجراد» الذي قلده الشيخ محمد اليدالي، كما تقول القصة المعروفة، في مديحية «صلاة ربي». ونعتقد أنه ينبغي النظر بكثير من الحذر إلى مركزية أولاد امبارك في نشأة الفن الموريتاني. فرغم أن بلاطات القوم شهدت من دون شك، كما تشهد على ذلك المرويات الشعبية والقصائد المشيدة بإقدام قادتهم وكرمهم، ازدهارًا قويًّا للفن والأدب الحسانيين، إلا أن جزءًا كبيرًا من الصورة الشعبية التي تشكلت لاحقًا عن أولاد امبارك وزخمهم يمكن اعتبارها «موقفًا تأبينيًّا رثائيًّا» من الذاكرة البيظانية تجاه إحدى الإمارات الحسانية الغابرة التي قضت، وتشكيلًا لـ«المتعالي» الذي لا يمكن الوصول إليه في منظومة القيم، خاصة منها ما تعلق بإكرام الفنانين.

الحرفية والفنية[١]. ويؤكد على الدور المحوري للتبادلات التجارية في هذا القرن ونمو القوافل التي كانت تتجاوز أحيانًا ألف جمل، وكذلك الصراعات[٢] المرتبطة بها وبالمسارح والآبار. ومازجًا بين المصادر المحلية وانطباعات الأوروبيين يقدم ملامح من الحياة الاجتماعية مثل شكل الخيمة البدوية وما تحوي من أدوات وأفرشة، وما يمارس أهل الصحراء من وسائل التطبيب ومعايير الجمال لديهم (لبلوح، تشراك السنِّينْ[٣]) وعاداتهم

(١) تحدث الكاتب هنا عن مدح سدوم ولد انجرتو لعالم تكانت الأشهر سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم، وعزاه إلى عبد الودود ولد الشيخ. في حين أن القصيدة الحسانية (الطلعة) التي أوردها ولد الشيخ في الصفحة المعزو إليها لم تكن مدحًا لسيدي عبد الله، بل كانت تبريرًا قدمه له هذا الفنان لأسلوب حياته بنبرة واثقة غير مهادنة انطلق فيه من سيرة الرسول الكريم وما كان يقابل به الثناء والمديح من كرم وأعطيات. وتقول القصيدة: يَـلَّي تلغزْ لاهـل الردَّاتْ ++ إلاه اسمعْ هاذو الكلماتْ ++ انْبيـنَ عَليـهِ الصلاةْ ++ وعليه السلام أبَديهْ ++ فاتْ انشِد في الطويل ابياتْ ++ عباس بن مرداس اعليهْ ++ وكعب بن زهير انشد فاتْ ++ بانت سعاد بين ايديهْ ++ واقضاهم بخْوايِجْ زينـاتْ ++ واحن مقتديِين الَّأ بيهْ.

(٢) في بحثه عما قد يرتبط بالغزوات والغارات التي كانت تشنها القبائل بعضها ضد بعضٍ من ممارسات إذلال، لا يستبعد الكاتب، بناءً على دلالات كلمة «الطيحة» أن يكون اغتصاب النساء عادةً قد رافقت هذه الغارات. وهو استنتاج ربما لم يراعِ التطور الدلالي لكلمة «الطيحة» وحرف الجر المعدي لفعل «طاحْ» في الحسانية. فالكلمة لم تكن تعني أيام الغزو والغارات القبلية أكثر من الغارة (المباغتة) لمسلحين ضد أقوام عزل أو ضد مسلحين ليسوا على أهبة الاستعداد أو ضد أنعامهم. وهو معنى غير بعيد مما تدل عليه الكلمة في العربية الفصحى، كما في لسان العرب. أما استخدام الكلمة بمعنى الاغتصاب في الحسانية فهو استخدام حديث النشأة تولد ربما من انزياح دلالي semantic drift وباستخدام حرف جر معدى هو «في» بدلا من «على.» والاستخدام الأخير بمعنى الاغتصاب استخدام غير تراثي خاص بالأوساط الشبابية في نواكشوط، تمامًا كاستخدامها للتعبير عن اقتحام المنازل تلصصًا أو تطفلًا.

(٣) يعطي الكاتب هذا المعيار الجمالي تفسيرًا غير متداول إذ يعرفه بأنه يعني بروز الأنياب، فـ«تشراكْ السنين» يعني تدبيب نهايات الأسنان، خاصة الثنايا والرباعية. وكانت المحافظة عليه تتطلب تجنب استخدامها في القضم. وكان أحد معايير الجمال لدى المرأة والرجل على حد سواء في المجتمع التقليدي.

الغذائية (مركزية الألبان[1] واللحوم) وانتشار استخدامهم للشاي أواسط هذا القرن والتدخين كذلك.

لقد استطاع أبو العباس خلال هذه المسيرة الطويلة أن يستنزف كل المصادر العربية والأجنبية والمحلية التي تناولت تاريخ الصحراء، وزاوج بين هذه المصادر لملء الفراغات التي طالما عانى منها هذا التاريخ في الفترة الفاصلة بين انحسار ذكر المرابطون من المصادر العربية وبدء الرحالة والمستكشفين الأوروبيين التدفق إلى الشواطئ الصحراوية. وقد نظر بعين ناقدة إلى لاتاريخية بعض المصادر المحلية وما تحمل من مبالغات وأسطرة في أعداد الجيوش والقوافل. كما انتبه لما سماه «استشراقًا مبكرًا» لدى المؤرخين والجغرافيين العرب، ولدى الرحالة الغربيين عن أنماط الحياة والعادات لدى سكان الصحراء. ولعل هذا الكتاب يشكل بداية للقطيعة مع السائد في التقاليد التاريخية الناطقة بالعربية عن أصول القبائل وتشكلها، إذ يعيدها الكاتب إلى «أواصر الامتزاج والاختلاط والاقتصاد المشترك والتصاهر والتحالفات السياسية وإعادة تأويلها والانخراط في متخيل أبوي كنوع من القومية البدوية ما قبل الحداثية.»

(١) يحاول الكاتب عند حديثه عن مركزية الألبان في العادات الغذائية للمجتمع الموريتاني، أن يربط بين الصَّربة (بفتح الصاد) ذات الأصل العربي التي تطلق في الحسانية على لبن الحلوب حديثة الولادة وبين الصُّربة (بضم الصاد) ذات الأصل الصنهاجي التي تطلق على وفد المصالحة القبلي، ليقترح أن هذا ربما يعني أن الأولى كانت تقدم في مناسبات المصالحات القبلية. والواقع أن الصَّربة كانت تقليديًا، على النقيض من هذا الاقتراح، مما يعزف الأسياد عن تناوله وكان الرعاة يستأثرون بها لأيام معدودة، ويطبخونها بطريقة خاصة.